

## خواطر ليلة الميلاد

للدكتور زكي مبارك

أكتب هذه السطور في ليلة الميلاد ، وفي خيالي بيوت  
عزيرة كنت أحب أن أراها وكانت تحب أن تراني . وسيقول  
قومٌ كلاماً كالذي قالوه يوم نشرت «الرسالة» مقال في التفجع  
لسقوط باريس !

كانت فرنسا أمةً استعمارية فشيتْ بانهازما من يؤذيهم  
بني المستعمرين ، وقاتهم أن فرنسا أعطت جميع الشعوب درساً  
سينتفعون به حامدين أو جاحدين

كانت فرنسا ترى أن اللغة هي عنوان الأمة ، وكانت ترى  
أن الوطن الذي لا يسيطر بالفكر على خصومه ومنافسيه وطنٌ  
ضعيف . ومن أجل هذا أنفقت فرنسا ما أنفقت من الأموال  
ليكون لها مدارس في جميع البلاد ، وبفضل هذه العناية صارت  
اللغة الفرنسية لغةً دولية ، وصار من حق الفرنسي أن يعنى نفسه  
من المناء في تعلم اللغات ، لأنه سيجد من يتفاهم معهم بلقته  
في أي بلد يتوجه إليه ، ولو في الصين !

اقترحتُ في سنة ١٩٣٨ أن نُفتي مدرسة مصرية تنافس  
المدرسة الفرنسية في طهران ، فلم أجد من يسمع كلامي . وأين  
من يعرف أن في طهران جريدة إيرانية لفتها الفرنسية ؟  
فوجئت يوماً وأنا بدار المعلمين العالية في بغداد بمجموعات  
نخمة ضخمة من المؤلفات الفرنسية ، وحين سألت عن مصدرها  
عرفت أنها هدية مرسلة من باريس

وقد استوحيت هذا الشاهد فاقترحت فيما بعد أن ترسل  
وزارة المعارف المصرية هدايا من الكتب المقدسة في المخازن  
إلى المدارس الأجنبية ، فتددت الوزارة طامنين ، ثم تطلعتُ  
فأهدت مجموعات هزيلة ، مع أن في مخازنها مجلدات مهجورة  
ستباع يوماً بلا ميزان ، لأن حراستها وصيانتها تجثمان الوزارة  
فسروياً من التكاليف .

كانت فرنسا تقول بمبادلة الأساتذة والتلاميذ ، لتعطي  
وتأخذ ، ولتفيد وتستفيد ، وقد أقامت في إحدى ضواحي باريس  
مدينة بنى فيها أية أمة لأبنائها ما نشاء ، ولقد استغادت أممٌ  
كثيرة من هذه الزية ، إلا مصر ، ولهذا تفصيلٌ قد يتأذى  
الشمسي باشا من تسجيله في هذا الحديث

ونحن اليوم في أوج صلاتنا مع الشرق ، فعند الشرق  
مدرسون مصريون يمدون بالثبات ، ومع هذا لم تفكر مصر  
في رد الجليل

كان لي مع هذه الليلة توارخ في القاهرة وباريس ، توارخ  
أبدهما الجوَّ الطروب أو الجوَّ العَبُوس ، فقد كان يتفق  
في أحيان كثيرة أن تحمل ليلة الميلاد أكاراً ومنغصات ،  
لأن الغالب في البيوت الفرنسية أن يكون الزوجان عاشقين ،  
وأن تكون نيران الغيرة مما يُشَبُّ في ليلة العيد حول « شجرة  
الميلاد » ، وما أسعدَ من يعيش وهو معذب بلوازع الوجدان !  
ما أذكر مرةً أن تلك الليلة مضت بدون عواصف ، إلا أن  
تكون في بيوت فرغ أهلها من مصارعة الأهواء ، وهي فيما عدا  
ذلك ليلة متاعب وكروب

وهذه الظاهرة هي سرُّ جمال هذه الليلة ، فاسطراع العواطف  
ميلادٌ جديد ، وقد يفعل فعل السَّحر في إحياء المشاعر والقلوب  
كنت أفضي هذه الليلة في بيوت أعرف من أحوالها  
أشياء ، فكنت أفهم الرموز والتلاميخ ، وكنت أجد التفاسير  
لبعض دقائق الأدب الفرنسي ، وهو أدبٌ قام على أساس الفهم  
للسريرة الإنسانية ، وسيعيش إلى أزمان وأزمان ، مادام في الدنيا  
ناسٌ يحبون الأدب الصادق الصريح

ثم جاءت هذه الحرب فقضت في مصير فرنسا بما قضت ، ولم يبق  
لأصدقائي الفرنسيين من زاد غير الحزن الوجيع ، فأنا لا أزورهم  
في ليلة الميلاد كما كنت أستع ، ولا ألقاهم إلا في الحين بعد الحين ،  
فهناك أحزان توارثتها المؤسسة وتزيدها اشتعلاً إلى اشتعال

وهنا أذكر أني عرفت أخيراً أن سقوط باريس لم يُحزن أهل  
باريس بقدر ما تتصور ، ولم يشمرهم بمماني الامتهان . وتفسير ذلك  
عند الأستاذ توفيق وهبة أنهم قومٌ تعودوا الهزائم والانتصارات ،  
ولم تكن الدنيا في أنظارهم غير مواسم للاختفاض والارتفاع

ولكني مع هذا أقرر أن حال الفرنسيين القيميين بمصر  
يختلف عن حال مواطنيهم هناك ، لأن المقرب يتعلق بوطنه  
تعلقاً لا يحسه القيم ، وقد تأكد عندي هذا المعنى في الأعوام  
التي قضيتها في باريس وفي بغداد ، فقد كان الخبر السيء يُورق  
نومي مها صرَّع وهان ، وكان أي حرق يُكتب ضد مصر  
يؤذي ، فأرد عليه في الحال

لو دعونا جماعة من أساتذة الشرق ليحدثونا عما في بلادهم من تقاليد وآراء وآداب لحدوا لنا هذا الصنيع ، وعدوه تلعفناً يستحق الثناء

ويظهر أنه لا بد من إنشاء قلم بوزارة الخارجية لمراجعة ما يكتب عن مصر في جرائد الشرق ، وتكون مهمته المبادرة إلى تصحيح ما يستوجب التصحيح ، وتكون مهمته أيضاً أن يستصدر أعداداً خاصة من بعض جرائد الشرق للتعريف بمصر كالذي تصنع وزارة الخارجية في استصدار أعداد خاصة من بعض الجرائد الإنجليزية والأمريكية

وهنا أشير إلى حادث ما ذكرته إلاشمرت بالحزن بمصر قلبي في سنة ١٩٣٩ أصدرت مجلة « الحديث » ومجلة « العرفان » ومجلة « المكشوف » أعداداً خاصة بمصر ، أعداداً نفيسة جداً ، ومع هذا لم أستطع إقناع وزارة المعارف بأن تشتري من تلك الأعداد مجموعات لكتبات المدارس ، ليمرف الذين فكروا في التنويه بمصر أن كرمهم لا يضيع

وفي تلك الأيام كنت أقترح على الأستاذ ازيات أن تصدر الرسالة أعداداً خاصة عن الأمم العربية فرحب بالاقترح وأجّل تنفيذه إلى انقضاء الصيف ، ثم بدا له بعد ذلك أن يواجه المشروع من جديد ، فصدته أزمة الورق عما يريد مالي ولهذا الكلام ؟

هذه ليلة الميلاد ، والأثير ينقل إلى سمي بعض ما يشور في شوارع مصر الجديدة من عيج وعجيج ، فكيف آثر في الاعتكاف في هذه الليلة ، وقد تفضل شهرذي الحجة بقلمها قراء ؟ لعلني أردت الخلوة إلى قلبي ، وهو الأئس الأئس عند اعتكار الظلمات في دياجي الزمان لعلني أردت بهذه الخطرات القومية أن أتجنب الخلوة إلى قلبي ، وهو عدو صديق

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى عدواً له ما من صداقته يد قضت ما قضيت من حياتي في دراسة الجمال ، حينما كان الجمال ، فأنا لا أضيف حرفاً إلى حرف إلا بميزان ، وأنا أصادق وأعادى بوحى الذوق لا بوحى النفع ، وما للموجب لأن أكون نفعياً وقد أغفاني الله من جميع الخلائق ، ولم أعرف ما للظلم والجور في أي يوم ، ولا جاز في وهمي أن أتصور أن الله قد يتخلى عني ؟ لي صداقات كثيرة مع أرواح تنطق بالأوراق لا بالألفاظ ،

ما الذي يمنع من أن تستقدم مصر بعض الأساتذة من الشرق ليدرّسوا في معاهدها العالية بأساليبهم الخواص : فهذا في كاية الآداب ، وذلك في دار العلوم ، وذلك في كاية اللغة العربية ، إلى آخر ما يصلح له علماء الشرق ؟

ليس معنى هذا أن مصر في احتياج إلى مدرسين ، وكيف وفي خريجي المعاهد العالية شبان أكفاء لا يجدون ما أعدوا له من المناسب التعليمية ؟

إن لهذه المسألة وضماً غير هذا الوضع ، والمراد هو أن تفكر مصر في إتاحة الفرصة لبعض أساتذة الشرق ، الفرصة التي تمكنهم من الوقوف على التيارات العلمية والأدبية في الديار المصرية ؛ فصر اليوم في ازدهار علمي وأدبي لم تشهد مثله من قبل ، وهو ازدهار يوحى إلى الأساتذة أكثر مما يوحى إلى الطلاب ، وقد يكون في وجود أولئك الأساتذة فرص لمناسبات علمية وأدبية تعود علينا بأجزل النفع ، وقد يكون في وجودهم خير للطلبة الذين حضروا إلينا من بلادهم ، فأنا ألاحظ أن أكثر الطلبة الشرقيين لا يجدون من يماونهم على الاستفادة الصحيحة من الإقامة بهذه البلاد

خطر في بالي مرة أن أقترح على مشيخة الأزهر الشريف أن تنشي كرسياً للفقهاء الجعفرى ، وكان هذا الخاطر لأنى لاحظت أن النضال بين المذاهب الفقهية قد انعدم في مصر أو كاد ، مع أن لمصر في التشريع الإسلامى تاريخاً من أعجبت التواريخ

إن مناصب « شيوخ المذاهب » صارت مناصب شكلية بسبب السلام الذى ساد بين المذاهب ، وهل نسمع اليوم خيراً عن شيخ الشافعية أو شيخ المالكية ؟

إن النضال بين المذاهب أدى للتفكير الإسلامى خدمات تفوق الإحصاء ، وله فضل عظيم في مرونة اللغة العربية ، وأكاد أجزم بأن الفقهاء خدموا اللغة أكثر مما خدمها الشعراء

لو استقدمنا عالماً شرقياً لتدريس الفقه الجعفرى بالأزهر لأثرنا النضال بين المذاهب من جديد ، وأعطينا مصر فرصة عظيمة ليقظة فكرية نادرة المثال

إن مصر في عهدها الحاضر تنشى تاريخاً جديداً في الشرق ، وهي في طريق الوصول إلى عقد معاهدات ثقافية مع أكثر أمم الشرق ، وهذا يوجب عليها أن تعرف الشرق أكثر مما تعرف ، فيكون لها فيه سفراء روجيون ، ويكون عندها منه سفراء روجيون

في عيد القمر « ، فأين أنا مما يريد؟ وأين الأعصاب التي تستطيع  
تدبيح تلك الأحاميس في كل أسبوع؟

أمام عيني وبين يدي أرواح موقودة هي المقالات التي  
سطرتها بدي ، ولا أستطيع نشرها بأي حال ، لأنها تخالف  
المألوف من تقاليد هذا الزمان

ثم يحاسبني ذلك الخطاب على هفوات قلبي ، كأنه يجهل أني  
أمتشق القلم في كل مساء ، وأني أراد أباكرا المعاني في يقظتي  
ومنأي

أما بمد فهذه ليلة الميلاد ، وقد قضيتها وحيداً فريداً  
لأتق الله في نفسي فلا أعرضها لشواجر الأرواح وعواطف القلوب  
وقد بقيت ليلة ستأتي بعد ليال ، وهي ليلة العام الجديد ،  
وأغلب الظن أني سأحرم نعيمها على نفسي ، لأنني نذرت التبتل  
بعد فراق من تلقيت عنهم وحى الروح في اللحظة التي تفصل  
بين العام الذاهب والعام الوليد

ما جزعني على ما مضى من أيام ، ولم يمش أحد كما عشت ،  
ولا استجاب الوجود لنداء شاعر كما استجاب لندائي ؟  
ماذا صنع الدهر بهم ؟ ماذا صنع ؟

إن دنياي بعدهم وهم في وهم ، وخيالي في خيال ، ولن  
أندرق طيب الحياة إلا بعد أن يصفحوا عني

إن ذنبي عندهم أني صيرت حياتهم أفانين من الارتياح  
والازعاج ... فهل يجهلون ما صنعوا بحياتي ؟ وهل يجهلون أن  
الجروح قصاص ؟

قد كان لي قبلكم حب وكنت فتى

لظل سلطانهم أهل الهوى تبس  
فكيف أشقيتموني كيف لارضييت

ولا أرنتي الليالي كيف أردت  
هبوا فؤادي سلا واجتاز محتته

فن بسوة قلب الصب ينتفع  
ياغاضبين تماؤوا تشهدوا كبداً رجاؤها في خيال البرء منقطع

هوى شهوات أمانيه فليس له فيما تجود به الأوهام منتفع  
هوى خلقم وأفنيتم ، ولا عجب

بعض الأحياء في قتل الهوى صنع  
لا تحسبوا هجركم خطباً روغني إلى بواد بنات الدهر مضطلع

زكي مبارك

وأقسم جهد اليمين أن مجدقة داري في سنتريس أشجاراً يعترها  
الذبول إن صدفت عنها أسابيع

لي صديق هو اليوم أحد مدرسي الفلسفة بكالاية الآداب ،  
وهو الأستاذ محمود الخضيرى ، وكان لي معه حديث في

« ايسكوار مونج » في نوفمبر سنة ١٩٣٠ ، فاذك الحديث (١)  
كنت أجلس في بعض الضحوات « بذلك ايسكوار » ،

وهو حديثه الحلي في الاصطلاح الفرنسى ، كنت أجلس تحت  
شجرة يؤنسها أن ترى رجلاً بيده كتاب ، وكان أصدقائي من

بمئة الجامعة المصرية يعرفون كيف يلقوننى هناك . وفي ذات  
يوم حضر الأستاذ محمود الخضيرى فوجدنى أجادل رجلاً يحاول

تشذيب تلك الشجرة بمنف ، فأنكر على ما أصنع ، فقلت إن  
الشجرة تصرخ ، ومن واجب من استظل بظلها أن يدفع عنها

المدوان . فقال : وهل يحس الشجر والنبات ؟ قلت : نعم ،  
ويتالم الشجر والنبات كما يتالم الحيوان !

وبعد شهر حدثتنا جرائد باريس أن جلالة الملك فؤاد قد  
استقدم عالماً هندياً اسمه « بوز » لياق في الجمعية الجغرافية

محاضرات عن نظريته في إحساس النبات !  
إحساسى بالوجود هو سبب عتائي ، ولو عرف الناس هذا

النساء لقاتلوني عليه ، فهو أطيب الأطياب في ثمرات الحياة  
لم أدخل بلداً إلا أحييته أصدق الحب ، لأنى أرى بضميرى

وجه الله في كل مكان . وما صادقت إنساناً وغدرت به أبداً ،  
لأنى أرى الصداقة من أظهر الدلائل على صحة القول بوحدة

الوجود  
وأنا أرحم وأحس وأتفجع كلما رأيت إنساناً يكذب

أزينا فى سبيل العيش ، فاللوت الذى يخافه الناس لن يصل  
يوماً عن طريق الجوع . ولو نظر الناس فى أسباب أمراضهم

لوجدوها ترجع إلى الإفراط فى الطعام والشراب ولو كانوا  
من الفقراء

ثم ماذا ؟ ثم يبقى جواب الخطاب الوارد من « الألمان »  
فاذا يريد ذلك الخطاب ؟

هو يريد أن تكون مقالاتي كلها على غرار « دار الهوى

(١) فى حى السيدة زينب درب صغير اسمه « حارة منجى » ، ومنجى  
الذى سميت باسمه تلك الحارة هو « Monge » أحد الأساتذة الذين قدموا  
مصر مع حملة بوناپرت